الاسس الدولية

لسلام عالمي بعد الحرب

لمحمد رفعت بك : مراقب التعليم الثانوي

لقد أوجز الساسة الانكليز الكلام عن أغراض الحرب مؤثرين تركيز الجهود في الحرب نفسها وكسب المعركة ولكنهم جميعاً متفقون على ان الغرض الأول من هذه الحرب هو القضاء على النظام النازي في أوربا . وهذا بطبيعة الحال شرط أساسي للسلام ، ولكن الهدم وحده لا يكفي ولا بدّ من الانشاء ووضع القواعد الثابتة التي تصون العالم من الفناء الذي يهدد المدنية بسبب الحرب . وإنّا في ضوء التجارب الماضية نعرض ما يأتي : —

أولاً — تكوين مؤتمر الصلح — يجب ان تكون شروط الصلح نتيجة للبحوث التي يقوم بها المختصون في النواحي المختلفة ولا يقتصر مؤتمر الصلح على الفاتحين بل يجب ان تمثل فيه الأمم المنكوبة والدول المحايدة وقد اصابها من ويلات الحرب نصيب يسوّغ اشتراكها . وكل صلح يعقد على فكرة إذلال المغلوب والتحرش به هو صلح لا بد ان يولد حرباً جديدة لاشباع رغبة التشفي والانتقام ولو بعد حين كما ان كل صلح توضع شروطه على اسس غير علمية صحيحة فهي شروط قابلة للاخلال بها والكسر في اي وقت . لذلك يجب أن تؤلف لجان مختصة لعقد الصلح بدلاً من المؤتمرات السياسية المعتادة وكل لجنة تختص بموضوع من موضوعات الصلح فتكون هناك لجنة للحدود واخرى للتجارة وثالثة للنقود ورابعة للهجرة الخ وكل لجنة تضع قراراتها وهذه القرارات تكون ملزمة للجميع

اما تأديب العدو الذي كان سبباً في اثارة الحرب فهو شعور طبيعي ولكن يجب ان يعطى الدرس في أثناء الحرب وقبل اعلان الهدنة وعقد الصلح يجب ان يعلم هؤلاء الناس بطريقة لا تساورها رحمة او تورع ، ان الحرب شرٌّ مستطير على الانسان وإدانة مدمرة لكل ماهو نافع وعزيز في العالم ، يجب ان يحس هؤلاء الناس بما اصاب العالم من نظمهم وتعاليمهم وعسكريتهم فيقدرون آلام الآخرين

ان الشعوب التي فضلت المدفع على الزبد في وقت الرخاء يجب ان تتذوّق نيران المدافع وان تكتوي بسعيرها قبل ان تتمتع بحلاوة الزبد مرة ثانية . قال الله تعالى في كتابه العزيز « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين » وقال تعالى « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفوٌّ غفور »

ثانياً — الدول الصغيرة — لقد برهنت الحرب الماضية والحرب الحالية على ان اول فريسة

تنتهيها الحروب هي شعوب الدول الصغيرة التي يداس استقلالها وتستغل مواردها ويستعبد اهلها وتخرب ارضها لمصلحة المتحاربين . وحينئذٍ لا تنفع وثائق الحياد او الاستقلال ولا تقيم المعاهدات او المواثيق شرور الخراب . لذلك يجب ان يرد الى هذه الشعوب استقلالها ولكن بشروط معينة أهمها أن تنشأ من هذه الدول اتحادات تآلفية أو فدرالية على نسق نظام الولايات المتحدة فيتألف كل اتحاد من مجموعة متجانسة من الدول الصغيرة تحتفظ كل منها باستقلالها ونظام الحكم في داخليتها وتشترك جميعها في سياستها الخارجية وفي وسائل دفاعها وعلمها وتجارتها وذلك بتأليف مجلس اتحادي يمثل جميع اعضاء الاتحاد ويكون من اختصاصه الفصل في هذه المسائل . فيؤلف من دول الشمال مثلاً اتحاد يجمع بين السويد والدنمرك والنروج وهولاندا ويؤلف اتحاد لدول البلقان واتحاد لدول وسط اوربا واتحاد لاتيني يجمع فرنسا وبلجيكا واسبانيا وايطاليا والبرتغال واتحاد للشرق الاوسط يجمع بين مصر والسودان والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب وهكذا

اما ترك هذه الشعوب مستقلة بالاسم استقلالاً تامًّا وما هي في الحقيقة الا محسوبة على احدى الدول الكبرى توجهها في سياستها الخارجية وفي دفاعها وفي تجارتها فتضليل لشعوب الدول الصغيرة وتعريض لها للبوار والدمار . فاذا كانت هذه الشعوب ضعيفة بمفردها فان في اتحادها قوة وفي هذه القوة ما يرد المهاجم عنها

ثالثاً — التسليح — من أهم أسباب الحروب الاستعداد للحرب ومن أول واجبات السلام نزع السلاح أو تحديده . وكلنا نعلم أن من مقومات الأمن داخل البلاد زوال الخطر والاطمئنان الى حكم القانون . ومن أول شروط استتباب الأمن جمع الاسلحة وحظر حمل السلاح الا برخصة ومراقبة محال صنع الاسلحة وبيعها ووضع المشبوهين وأرباب السوابق تحت الملاحظة والمراقبة ولا فائدة من حظر حمل السلاح على فئة والسماح به لفئة أخرى بل يجب ان يكون الحظر عامًّا حتى يطمئن الجميع ويأمنوا عاقبة منع التسليح . ولمنع الحروب الدولية يجب اتخاذ مثل هذه الطرق . ولقد أضاعت الدول فرصة كانت سانحة لتنفيذ فكرة تحديد التسليح عندما نزعوا السلاح من يد المانيا عقب الحرب . ولو أنهم دخلوا مؤتمر نزع السلاح بعد ذلك بقلب سليم وعزم أكيد لهشموا السلاح الذي تذرعت به المانيا عند شروعها في التسليح . ولحل مشكلة التسليح يجب أولاً أن تحدد الاسلحة التي تستعمل للحرب

ويلغى منها سلاح الغواصات والطيران ويقتصر استعمال هذه الأسلحة على الأغراض التجارية والمدنية ، ثم تقرر لكل دولة القوة التي تتفق وسلامة اراضيها وحاجة الأمن فيها مع مراعاة ميزانيتها

ر. دامت الدول التي تهدد السلام توضع تحت مراقبة دولية دقيقة فلا خوف من تحديد السلاح وليس معنى هذا اننا سنستغني عن الحرب او التسليح استغناء كليًا . فما دام انعام يستحوذ عليه الخوف فان الدول ستسلح نفسها كما تسلح أفرادنا وعن عجاز طريقاً غير آمن بين مفاوز الحيان وفي جاهل الغابات حتى اذا لحظ اللص او اللصوص ان القافلة مسلحة تسليحاً لا قبل لهم بمقاومته فانهم لا شك مرتدون على أعقابهم قافلون داخل حدودهم . وتظل الحال كذلك ردحاً من الزمن الى ان يؤوب اللص ويسأم الانتظار فييأس من محاولة حرفته وينصرف عنها الى حرفة سامية اخرى كصناعة الزهد مثلاً بدلاً من الغابات او عندئذ تصبح كلمة القانون هي العليا وتستطيع القافلة ان تجتاز الطريق وكلاب الحرب تنبح ولا تعض !

رابعاً — المستعمرات — يخطىء الذين يظنون ان للمستعمرات دخلاً مباشراً في قيام الحرب الحالية . فالمستعمرات اذا استثمرت لفائدة أهلها وجعلت حكومتها كانت عبئاً ثقيلاً على حكامها . وقد سبق ان أبدى الخصمان المتنازعان استعداداً لبحث الموضوع على أساس الانتفاع المشترك بالخامات التي تنتجها هذه المستعمرات

أما المستعمرات المستقلة منها فتبقى كما هي حرة في مجموعة الأمم . وأما شبه المستقلة والتي تحت الحماية او الانتداب مثل مراكش وتونس والهند وسوريا ولبنان فتستقل بالشروط التي اوردناها للدول الصغيرة أي تندمج في نظام اتحادي معين

وأما المستعمرات غير المستقلة فيطبق عليها نظام الانتداب ويكون الغرض من حكمها استثمارها لمصلحة أهلها أولاً ثم اتاحة فرصة الاستثمار للجميع على السواء وتكون الدولة صاحبة الانتداب مسئولة أمام هيئة دولية عن عملها

خامساً — الحدود والأقليات — اذا ظهرت مشكلة الحدود بين دولتين او اكثر تلغى الحدود الحربية أو الجغرافية وتكون عناصر اللغة والجنس والدين والتاريخ وتوافق الآراء هي التي تعين الحدود بين الدول فلا تعطى دلماسيا لايطاليا ليكون البحر الادرياتي تحت تهديد ايطاليا ويحرم أهلها السلافيون الانضمام الى يوغسلافيا ولا تعطى ايطاليا جنوب التيرول لتحصين حدودها الشمالية مع ان اهل الأقليم من الالمان ولا تترك دنزج لبولندة ليكون هذا ممر تجاري داخل اقليم غريب عنها ولا تعطى جزر الاغريق الاثنتي عشرة أو الدوديكانز لايطاليا ولا يرغم اهل النمسا على الاستقلال اذا أرادوا الانضمام لدولة اخرى أما عن الأقليات فقد أعطى كمال أتاتورك مثالاً يحتذى اذ استبدل بجميع الأروام في تركيا وآسيا الصغرى وكان عددهم يبلغ نحو مليون من الاتراك الذين كانوا أقلية في بلاد اليونان فبمثل هذا التبادل يمكن تسوية كثير من مشكلات الأقليات ومن بينها مشكلة اليهود ولا يجوز مطلقاً قهر السكان على مغادرة مواطنهم

الى أقاليم أخرى الا بعد الاتفاق فليس الآدميون ايّا كانوا سلماً أو سائمة تساق

سادساً — حرية البحار — أما عن البحار ومنافذها فيجب ان تكون حرة ومضمونة للجميع على السواء فالملاحة في قناة السويس مثلاً حرة للجميع في السلم والحرب وسواء أكانت القناة تابعة للشركة أو لمصر فستظل كذلك لأنهُ يقتضي عقد الشركة ويقتضي المعاهدات الدولية تنوع عمليها . أما المنافذ الاخرى مثل جبل طارق والدردنيل وعدن فمن السهل إما ان ينزع سلاحها فتصبح منافذ حرة للجميع بصرف النظر عن الحكومة التي تسيطر عليها وإما توضع تحت اشراف لجنة دولية

سابعاً — النظام الاقتصادي — أما النظام الاقتصادي الذي ينبغي ان يسود بعد الحرب فيجب أن يكون نظاماً عالميًّا مجرداً من الأنانية وحب الكسب وموجهاً لمصلحة المستهلكين من العمال والفلاحين لا لمصلحة طبقة واحدة هي طبقة اصحاب رؤوس الأموال . لقد تدرَّج الانتاج في جميع المحصولات والسلع تقريباً واجتاز المراحل الصناعية الاولى من المنزل وسوق القرية الى السوق الوطني وأصبحت السوق الآن تشمل بلاد العالم جميعاً وصار الانتاج بالجملة في كثير من الصناعات . ولكن السياسات التي تتبعها الحكومات لا تزال متأثرة بسياسة القرون الماضية قبل حركة الانقلاب الصناعي فالدول جميعاً تريد احياء النظام التجاري القديم Mercantile System بتشجيع الصادرات والتقليل من الواردات بقدر الممكن وتريد ان تقيم الاسوار والحواجز الجمركية في وجه الواردات من الخارج وكل امة حريصة على ميزانها التجاري فتريد أن يكون لها لا عليها. ولست أدري اذا كان هذا هو غرض جميع الحكومات فمن اين نجد الدول التي تقبل صادراتنا أو التي تقبل أن يكون عليها التزامات لنا . الحقيقة يجب أن نقضي على سياسة العزلة التجارية وان تعود الدول الى سياسة حرية التجارة والتبادل فتتخصص الدول كل في انتاج ما تحسنهُ وما يوافق تربة ارضها واستعداد أهلها وبيئتها ولا مانع من تقرير ضرائب معقولة على بعض المنتجات وخاصة في الدول الناشئة وبذلك تنعم الشعوب بالخيرات والغلات التي تجود بها الارض والمصانع الحديثة وعلى الدول ان تضع حدًّا للتنافر والتكالب بين كبار اصحاب رؤوس الأموال فتحول دون استغلال الافراد أو الشركات واستئثارها بمصالح وطنية كبرى فتتولى الدولة ادارة هذه الأعمال كما تتولى بعض الحكومات ادارة سكك الحديد والتليفونات واللاسلكي، وكما تتولى الحكومات في زمن الحرب سفن الملاحة ومصانع الذخيرة وانتاج مواد الغذاء والوقود ، وكما ان هناك لجان دولية للاشراف على الصحة العامة والآداب العامة كذلك يجب ان تؤلف لجان دولية لتنظيم المواصلات والنقود والضرائب الجمركية وكل ما يهم المجتمع الانساني الذي ارتبطت مصالحه واشتبكت اشتباكاً لا يجدي معهُ الاحتكار واقامة الحواجز الجمركية والاسوار

ثامناً ـ واخيراً النظام السياسي — وكان يجب ان يقضي على نظام العزلة الاقتصادية لانه نظام عتيق ولا يتفق مع التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي وصل اليه العالم بفضل المخترعات العلمية والصناعية الاخيرة وما ينتظر لها من تقدم مطرد كذلك يجب ان يقضي على العزلة السياسية للامم . ويجب ان تتدرب الشعوب وتتدرج في سياسة الوحدة العالمية . ولا نريد ان نقول بامكان تأليف اتحاد عالمي او اتحاد اوربي الآن . اذ لابد ان تمرن الشعوب على قبول الآراء والنظم الجديدة . فمن أجل فكرة التسامح الديني حاربت الشعوب قرنين او ثلاثة قرون ولا يزال اثر التعصب الديني موجوداً في العالم . ومن اجل الحرية والاستقلال والوحدات القومية قد كافحت الشعوب سنين طويلة ولا تزال هناك شعوب ترزح في الاستعباد ولا تتمتع باستقلال او وحدة قومية . وفكرة عصبة الأمم لا تزال في طفولتها ولم تلق من الدول او الشعوب ما يساعد على التدرج في توسيع الفكرة

وقد كانت انكلترا في الماضي والولايات المتحدة الى الآن ترى في عزلتها عن اوربا اكبر ضمان لها على التمتع باستقلالها وسلامتها من الحروب . اما الآن وقد تضافرت القوى الطبيعية والطبية على القضاء على خرافة العزلة المنيعة بعد انتشار الكهرباء واللاسلكي والطيران وتقدم المواصلات تقدماً جعل المسافات بين الممالك تقطع في زمن أقصر مما كان يستلزمه الانتقال في الماضي بين المدن في المملكة الواحدة وجعل المسافة بين انكلترا واميركا تقطع في نفس الزمن الذي كان يستغرقه الانتقال من انكلترا الى فرنسا

ولما كانت هذه السرعة في المواصلات مع استخدام المخترعات الحديثة قد حولت الحرب من ظاهرة محلية او قارّية الى ظاهرة دولية عالمية وان قوة التدمير والتخريب في الحروب لن يقتصر ضررها على الحصون والمحاربين والاهداف العسكرية ولكنها ستعم الاحياء وتكتسح الارجاء ويستهدف لها النساء والاطفال والعجزة والمحايدون كغيرهم من المحاربين لذلك كله تحولت انكلترا تدريجاً عن سياسة العزلة الى السياسة القارية أو العالمية وستضطر اميركا قريباً الى الخروج من عزلتها وسايرة العالم في ارتباط حلقاته وتضامن اجزائه . فلن يجب اولاً ان تتمتع الشعوب باستقلالها وبحرية اختيار اسلوب الحكم الذي يوافق مزاجها الا اذا كان هذا الاسلوب خطراً على الآخرين . فنظام الفاشية أو النازية قد أصبح خطراً على العالم ولذا وجب ان يتعاون الجميع على القضاء عليه قبل ان يقضي على مظاهر الحرية والمدنية في العالم

وبعد ذلك لست أرى من العقل ان نحرب نظاماً اتحادياً جديداً ونترك نظاماً جربناه وخبرناه وبنيناه بجهودنا وتعهدناه مدة عشرين عاماً وعرفنا مواضع الضعف فيه وهو نظام عصبة الأمم فعلينا ان نعيد النظر في الميثاق ونصحح فيه ما يأتي :

أولاً — يلغى حق انسحاب الدول المشتركة من العصبة

ثانياً — لا يشترط أن تكون القرارات التي يصدرها المجلس والجمعية العمومية بالاجماع وأظن انه لا يؤثر في الاجماع خروج صوت أو صوتين أو ثلاثة

ثالثاً — يكون التحكيم الزاميًّا في الخلافات الدولية سواء أساسية كانت أم قضائية وسواء أخاصة بمصالح عامة كانت أم بمسائل تتعلق بالشرف والوطن والمصالح الحيوية . وتؤلف لجنة دولية لصياغة القانون الدولي وحفظ موارد العرف بين الدول

رابعاً — تؤلف لجنة دولية خاصة لتقرير القوات الحربية والبحرية التي تكون تحت تصرف المجلس لتنفذ قرارات العصبة وما تفرضه من العقوبات الاقتصادية والحربية وخلافها لردع المعتدين وينفق على هذه القوات من ميزانية العصبة

خامساً — يعطى للمجلس او للجمعية العمومية حق بحث المشكلات الدولية واتخاذ قرارات فيها بدون انتظار عرضها من قبل المتنازعين

سادساً — تساعد العصبة على تنظيم الاتحادات الفرعية المتجانسة التي أشرنا اليها عند الكلم على الدول الصغيرة . ويجب ان نذكر ان تأليف هذه الاتحادات ليس من قبيل الخيالات أو الرغبات النظرية بل ان الفكرة قد دخلت فعلاً في حيز التنفيذ وكلنا نذكر ما اقترحته انكلترا على فرنسا عند ما أحدق بها الخطر الألماني في الصيف الماضي اذ عرضت عليها رسميًّا ان تتحد معها في حكومة واحدة ولولا الضغط الألماني لقبلت فرنسا

ولا ننسى أن مجموعة الأمم الحرة التي تنتظم الامبراطورية البريطانية الآن ما هي الاَّ اتحاد متجانس بين دول وشعوب مستقلة تماماً ولها وزاراتها وبرلماناتها وهذه البرلمانات هي التي تقرر حق السلم والحرب دون ارتباط بما تفعله انكلترا . ومتى تمَّ تكوين هذه الاتحادات وتألف من مندوبيها المنتخبين لا المعيَّنين مجلس العصبة أصبحت قضية السلام في يد الشعوب لا في يد الحكومات وارادة الشعوب اذا اجتمعت كانت أقوى من جيوش العالم كله

هذه تكهنات مشتغل بالتاريخ قد استوحى الماضي فأفهمه واختبر الحاضر فعلمه وتطلع الى الأفق البعيد من خلال بلورة المستقبل فرأى هذه الصور التي رسمت خطوطها وبينت سماتها وأجملت تفصيلها وان لم استطع تجميلها . فاذا قدر للعالم ان يخلص بهذه الصورة من فوضى الحروب الدولية فان امامنا ميادين ومواقع عدة في الداخل تستعر فيها قوانا وتروعنا ورجولتنا وشبابنا فلنعلنها حرباً داخلية نحارب فيها الجهل والمرض والفقر والفساد ونقاتل الجشع والطمع والنفاق ونهاجم الدسيسة والغدر والعار . وحينئذٍ اذا قدر لنا النصر في هذه الميادين خرجت الانسانية من المخازي والكروب التي أعدتها لها مدنية الحروب والفوضى الدولية الحالية واستطاعت ان تشق طريقها صعداً الى السماء نحو النور ونحو النجوم !

مصير التجارة الدولية

لفؤاد محمد شبل

اتسم الاقتصاد العالمي منذ الحرب العظمى وبوجه خاص منذ عام ١٩٣١ ، بما اعترض مجرى التجارة الدولية من عقبات كأداء . اذ منيت بأشد ضروب الحصر والتقييد متمثلةً بصفة خاصة في مشروع السنوات الاربع الالماني الذي وضع لكفاية المانيا نفسها اقتصاديًا . وبذلك نشأ تياران فكريان يتعلق بفوز احدهما مصير الاستبدال الدولي أو بعبارة شاملة مستقبل الاقتصاد العالمي . فالرأي الاول يمثل الفكرة القائلة بالاكتفاء الاقتصادي وتضييق نطاق الاستبدال الدولي ، والثاني الرأي القديم المعروف بحرية التجارة . فأي الرأيين سيكتب له النصر . وهل التوفيق بينهما يتيح للعالم ما يرتجيه من الثقة والسلام والهناءة ؟

ان قيام الحرب الحاضرة ، وما حملت معها من تقييد عنيف للتجارة الخارجية وما تتسم به من توجيه كل دولة لاقتصادها القومي توجيهاً لايراد به اشباع حاجات شعبها ، كما يقضي بذلك المنطق الاقتصادي ، ولكن يراد به كسب الحرب ، يؤثر في الاقتصاد العالمي وسيكون لهذه الحرب أبلغ أثر في مصير هذا الاقتصاد وتطوره . وانا في هذا البحث سنحاول ان نلقي ضوءا على تلك المسائل والمشكلات التي سيواجهها العالم فيما يختص بالاستبدال الدولي وعسى ان نوفق في تبسيطها تبسيطاً يقربها الى الأذهان

١ — تطور التجارة الدولية

يرد قيام التجارة الدولية على مدى واسع الى ما اختصت به الامم المختلفة من مزايا مادية ومعنوية طبيعية كانت ام مكتسبة . وكلما تباينت خيرات الامم واشتد التباين بين المزايا النسبية للاقطار المختلفة ، كلما زادت عمليات المبادلة بينها وكلما عظم نفع التجارة الدولية للعالم . وقد يكون قطر ما مثل (ا) في مكنته انتاج مقدار من القمح من مساحة معينة أكثر مما ينتجهُ قطر آخر مثل (ب) من المساحة نفسها . بيد ان هذا لا يمنع قيام التجارة الدولية بينهما اذا كان لدى (ا) من مصادر الثروة مايمكنهُ من استغلالها بكفاية أعظم من ناتج القمح . وعلى ذلك فيتخصص هو في استغلال هذه الثروات التي لا ينتجها (ب) ويصدرها الى (ب) على ان يستورد مقابلها حاجته من القمح من (ب)

ولقد أحدث القرن العشرون تطوراً عميقاً في التباين بين المزايا النسبية للبلاد المختلفة ، — هذا التباين الذي تقوم عليه التجارة الدولية اذ امتدى الى استخدام البترول والطاقة الكهربائية وأمكن الاستعاضة بها عن الفحم في الصناعة والنقل . وبذلك قلَّ تفوق البلاد المنتجة للفحم التي

أتاحت لها هذه الافادة نمواً صناعيًّا ممتازاً طوال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . وبالتالي امكن قيام الصناعة في جهات اخرى لم تكن لتقوم فيها من قبل لافتقارها الى هذه الافادة . ومن الجهة الاخرى فان استغلال الاراضي البكر في البلاد الجديدة وبلغ أقصى غايته وأصبح قانون الغلة المتناقصة يفعل فعله . فهذا كله حمل الكتاب الاقتصاديين في اوائل هذا القرن على التنبؤ بضمور حجم التجارة الدولية نسبيًّا وقيامها بدور اقل من دورها السابق بالقياس الى حجم الانتاج العالمي

وفي الواقع جاوز شيوع استعمال الصناعي والمهارة الفنية كل ما كان يتوقعهُ الناس . وتبين سهولة نقل صناعة ما الى بلد آخر وادارتها بنفس الكفاية التي تدار بها في البلد الاول . ونتج عن هذا كله زيادة ضمور البابين في المزايا النسبية للبلاد المختلفة

٢ — اثر الانقلاب الزراعي

كان لتقدم العالم الزاهر أثره في ميدان الزراعة وتجلى هذا سواء في ادخال الآلات الميكانيكية على العمليات الزراعية او في طريق تحسين سلالات الحيوان والنبات . وكانت أبرز النتائج التي نشأت عن ذلك ظاهرة لم يكن يتوقعها الاقتصاديون في أوائل هذا القرن ، ألا وهي رجحان كفة الاقطار الزراعية في الاستبدال الدولي بعد ان كان العكس هو الواقع طوال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . اذ أدى الانتاج الصناعي وتشد الى رجحان كفة الاقطار الصناعية

وكان في الوسع تذليل عقبة الحرارة الى حدٍّ بعيد بفضل تطبيق قوانين مندل في الوراثة ، فأمكن زراعة القمح في أقصى الشمال واستغلال كثير من الأراضي الصحراوية التي ما برحت عطلاً من المتعة يضاف الى هذا سهولة المواصلات بين أغلب جهات العالم فأصبحت الحاصلات تنقل في يسر وسرعة عما كان له أثره في خفض منزلة التخصص الدولي وسلب بعض الدول مالها من شأن في انتاج أصناف معينة . وهكذا رأينا الحرير الصناعي يسلب مكانة الحرير الطبيعي فضعفت منزلة الصين واليابان في انتاج هذه السلعة وارتفعت منزلة أقطار أخرى ما كانت لتصلح لانتاج الحرير ، كما رأينا المانيا تخرج سكراناً صناعيًّا يسلب السكر الشيلي الطبيعي مكانته القديمة

وعندما ظهرت ثمار الانتاج الآلي وآثار الأساليب الحديثة في الأقطار الجديدة بما تحمل معها من انتاج وفير رخيص ، انخفض هذا على اسواق الدنيا القديمة وخاصة اوربا . وكان على هذه الاقطار اختيار احد سبيلين اما ترك الأحوال تجري على اعتها وبذا قد تتعرض لانقلاب اجتماعي خطير . واما اعتناق سياسة حماية الزراعة . وقد سلكت اوربا الطريق الثاني فكنت أينما وليت وجهك شطر قطر من الاقطار ألفيت اسواراً عالية من التعريفات الجمركية في ازدياد متواصل وعلى اتم استعداد لحماية الفلاح من آثار انهيار الأسواق العالمية ولانقاذه ومالك الأرض

من انضباع وانحصوله دون ترك الأرض وهجر الزراعة . لقد جاوزت سياسة الحماية هذه في بعض الأحيان الغرض المنشود من حماية الأرض والزراع فحسب . بعد أن لما رأت الأقطار المصدرة الأسواق موصدة دونها وانها لا تملك وسائل ناجعة للحماية لجأت الى مواجهة هذه الأسواق وقذفت بالزائد عن حاجتها من المنتجات الزراعية الى السوق العالمية بأثمان ماحقة . ولم تقف تلك البلاد ازاء هذا مكتوفة اليدين بل عمدت الى الاستعانة في الدفع ولجأت الى الغلو في رفع الأسوار الجمركية ، ولما رأت الأقطار الزراعية ان لاسبيل لها الى الاصدار عملت على الاقلال من وارداتها وانشاء صناعات لا يبررها المنطق الاقتصادي . ولقد نشأ ايضاً عن زيادة الانتاج الزراعي أمرٌ آخر ألا وهو مشكلة التحوُّل الحرفي لسكان البلاد الزراعية اذا عادت الأرض وهي غير قادرة على ان تستوعبهم كملاك زراعيين بعد زيادة الانتاج الزراعي هذه الزيادة الفائقة لا بفضل العمل ولكن بطرائق الاستنبات والتهجين . وحتى لو تهيأ حل هذه المعضلة سريعاً وبدون حدوث اضرار ، وهذا امر بعيد ، فان هذا الحل سيكون من شأنه ضمور ثمرة المزايا النسبية لا اتساعها وبالتالي تضييق نطاق التجارة الدولية

وهكذا عوضاً عن ان يكون تحسن وسائل الاكثار الزراعي سبباً في رفاهية العالم ونعمة من نعم التخصص الدولي أضحت عاملاً من عوامل اقامة الأسوار الجمركية وعرقلة التبادل التجاري الطبيعي

٣ — الحرب الماضية وأثرها في التجارة الدولية

تخلفت عن الحرب الماضية مشكلات سياسية واقتصادية ما زالت تفعل فعلها الى اليوم وتؤثر في التجارة الدولية مضافة الى العوامل الاقتصادية البحتة التي اسلفنا ذكرها . ولكي نفهم مصير التجارة الدولية بل مستقبل العالم الاقتصادي بعد هذه الحرب ، قد يكون من الخير استعراض هذه المشكلات التي يمكن تقسيمها مجموعتين :—

فالأولى خاصة باقتشار مبدأ الحماية الذي تمثل فيما اقامته معظم الدول من صروح جمركية شماء فارضة رسوماً عالية في كثير من الأحيان . وهذه السياسة كانت نتيجة مباشرة للحرب الماضية نفسها اذ انها حفزت كثيراً من الأمم الى انشاء صناعات تمتعت بالحماية بفضل الحصار وحوادث الفواصلات ، فضلاً عن اشتغال الدول المتحاربة بانتاج السلاح قبل اي شيء آخر . وفي ظل هذه الحماية المانعة نشأت الصناعات حتى اصبحت جزءاً لا يتجزأ من الكيان الاقتصادي للدولة وحتى غدت مراعاة مصالحها حلقة لا تنفصم من سياستها كما اصبح بقاء هذه الصناعات مرهوناً الى حد كبير ببقاء عنصر الحماية هذا . فكان ما شاهده العالم من المباشة في ابتكار الخطط للحيلولة دون منافسة الصناعات الاجنبية لصناعة المحلية . ولقد أثرت هذه السياسات في مركز

الدول الأخرى فعملت بدورها على الاقتداء بها وتكييف سياستها حتى تتفق وهذه النزعة الجديدة

وبفضل الحماية التي انشأتها الحرب الماضية أمكن قيام الصناعة في كثير من بلاد الشرق كمصر والهند والصين وازدهرت صناعات اليابان ودول اميركا اللاتينية وبذلك ضعف الاحتكار الصناعي لدول أوربا الغربية . كما تحولت الولايات المتحدة من دولة مدينة الى دولة دائنة تمد أوربا بكثير من المنتجات الزراعية بل والصناعية خلال مدة الحرب خاصة ، لاشتغال أوربا وتقتير باتاج معدات الحرب وانصراف نشاطها الى تكييف شؤونها الاقتصادية لمقتضيات حالتها

والأثر الثاني للحرب الماضية تمثل في تلك التنظيمات والاجراءات التي لا حد لها لتنظيم الاستيراد والتحكم في عمليات المبادلة عقب توقيع الهدنة واصراف أوربا نحو تعزيز أنظمتها النقدية واعادة تنظيمها الاقتصادي طبقاً للتطورات التي حلت بالاقتصاد الدولي. وظهر الاضطراب الاقتصادي في كافة نواحي أوربا ولاسيما المانيا وأوربا الوسطى . وكان المشاهد في حالة كل بلد منها في تقييد حرية التجارة أن الغاية الأساسية لهذا التقييد حماية ميزان مدفوعاته المعرَّض للخطر بسبب تداعي أسواق صادراته ، أو بسبب عوزه الى القروض الطويلة الأجل التي تيد على استمرارها أساس اقتصاده القومي او بسبب غمر اسواقه بالواردات الأجنبية او بسحب القروض القصيرة الأجل من سوقه المالية هذه القروض التي غدت دعامة من دعائم نظامه المالي . وهذا يحدو بنا الى الكلام عما انتاب العالم من أزمات اقتصادية ومالية بعد الحرب الماضية وأثر ذلك في التجارة الدولية

٤ — الأزمات المالية والاقتصادية

نجم عن توقف الاقراض الجديد لاحجام الدول الرأسمالية عن الاقراض بسبب كساد ١٩٢٩— ١٩٣٣ ، ان حفز الدول المدينة الى العمل على اصلاح ميزانها التجاري وتلافي أخطار عجز ميزان مدفوعاتها فاتخذت اجراءات اضاف كلٌّ منها قيداً جديداً على التجارة الدولية وحبس الاستبدال . لذا كان المشاهد في البلاد المدينة التي استطاعت التوفيق بين دخلها وخرجها ان هذا لم يكن نتيجة لزيادة الصادر بل كان من جراء نقص الوارد . ولم تكن الدول الدائنة (ولاسيما أميركا وفرنسا) على استعداد لتقبل ديونها بضائع اذ ينتج عن هذا ضرر يحيق بالمنتج الأهلي فيها ، فلم تر الدول المدينة بدًّا من الحد من وارداتها أي الاقلال من قوة شرائها الخارجية

ولعلَّ أعظم مظهر لتقييد التبادل الذي رآه العالم منذ عام ١٩٢٩ الى قبيل الحرب الحاضرة نظام الحصص الذي غدا من أعظم العقبات وأمتها وهي التي كثيراً ما حالت دون تقدم التجارة الدولية . يضاف اليه الاضطرابات النقدية والقيود التي غلَّت حرية انتقال رؤوس الأموال والمدفوعات التجارية ، فضلاً عن التحكم في أسعار الصرف ونظم التصفية . وتلك في الواقع

تعتبر صدى اعدم التوازن بين الاقتصاد الأهلي والاقتصاد العالمي

ولقد كان المأمول ان يستعيد كل بلد باجراءاته الخاصة ، توازنه الداخلي وان يلحق بما أتم به من مذاهب الأزمة التي شاعدها العالم وان يدفعه هذا الى التكالب نحو ابتكار الحلول الكفيلة بعودة الاستقرار الى ربوعه ، واتخاذ التجارة الدولية سيرتها الأولى ، لولا الأحوال السياسية التي نشأت منذ تولى النازي أزمة الحكم في المانيا ، ولما بدا للعيان من عودة المانيا الى التسلح وذعابها في هذا المضمار الى أبعد حد وتهديدها السلم العالمي ثم توقيع العقوبات على ايطاليا وتسابق كافة الدول الى التسلح وبخاصة الأمبراطورية البريطانية

٥ — مرحلة التقلقل السياسي والاستعداد للحرب

كان من جراء فشل المؤتمرات السياسية التي كانت أغراضها وضع أساس سلم دائم وتقرير قواعد سياسية عالية تستند الى قوة عصبة الأمم وتكون غايتها رفاهية العالم اجمع ، ان اضطرب جو الاقتصاد العالمي — وبخاصة لأن هذا وافق حدوث الأزمة الاقتصادية العالمية في ١٩٢٩ — ١٩٣٣ ثم تولي النازي أزمة الحكم في المانيا عام ١٩٣٣ — فمن ذلك الحين توالت الأحداث على العالم فزعزعت بنيانه وهددت من كيانه وعلم الكل ان الحرب آتية لا ريب فيها . فصلت كل دولة من جانبها على الاستعداد لها ، وظفرت الناحية الاقتصادية بالنصيب الأكبر الأوفر من العناية والاهتمام ، اذ عمدت كل دولة الى تكييف حالتها الاقتصادية وفقاً لمقتضيات الحرب الجديدة ويتجلى هذا الاهتمام في محيط تلك الدول المهددة بتطبيق الحصار البريطاني عليها اعني المانيا وايطاليا ففي سبيل كفاح الحصار البريطاني وجهت كل من ايطاليا والمانيا مسائلها الاقتصادية توجيهاً معيناً . فأصبحت الحكومة تشرف على ما جلَّ ودقَّ من الأمور الاقتصادية . وتذهب في هذا الى حدٍّ بعيد . فتدخل في شئون الأفراد وتخضع انتاجهم واستهلاكهم لمشيئتها مدفوعة الى ذلك لا بوظيفتها الأساسية وهي السعي لرفاهية شعبها ولكن بوجوب التأهب كل التأهب للحرب

فالمانيا مثلاً — وقد دفع الجوع شعبها الى الثورة في الحرب الماضية — بحث نحو توفير المواد الغذائية والمواد الأولية في بلادها التي طلبها غير مرن أو التي اذا قطعت عنها عند نشوب الحرب أو كوسيلة للضغط الاقتصادي والسياسي تعرضت البلاد الانهيار . ولقد وجهت السياسة الاقتصادية نحو إحداث تغيير في أسس الصناعة من حيث اعتمادها على المواد الأولية النادرة الوجود في المانيا أو التي يلزم استيرادها من الخارج بأن تستبدل بمواد اخرى يمكن انتاجها في المانيا . وتحقيقاً لذلك أخذت المواد البديلة او الأعواض مكان الحديد وغيره من المعادن تزاد انتاج الألومنيوم والمغنيسيوم والحديد وجميعها أصناف خسيسة النوع تنتج في داخل المانيا نفسها

وحل النشاط الصناعي محل النشاط الطبيعي. واستبدل بالألياف الصناعية عن القطن والصوف والمكر الزجاج الصناعي... الخ. كما فرضت رقابة شديدة على الزراعة وأصبح الزارع غير مسيطر على عمليات الاقتصادية البحتة التي أخضعها النمي لي جني أقصى مقدار ممكن لمحصوله. ولكنه عدا ذلك مقيد بمشيئة الحكومة التي حتمت عليه زراعة أصناف معينة والعدول عن أصناف أخرى. وفرضت أسعاراً حكمية للانتاج الزراعي. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أعطى المستهلك الالماني قائمة معينة من الأصناف الغذائية عليه أن لا يتعداها. ولقد كانت الغاية النهائية للحكومة من ذلك كله التخفيف من حدة الحصار البريطاني الذي يطبق على المانيا عند دخولها الحرب. ولكي تنجح الحكومة الألمانية في تطبيق نظامها الخاص بالاستكفاء الاقتصادي فرضت رقابة شديدة للغاية على تجارتها الخارجية لمنع العوامل الخارجية من ان تأخذ مكانها في الاقتصاد الالماني. فأصبحت الواردات والصادرات خاضعة لسلطان الحكومة واشرافها. كما وضعت قيود شديدة على خروج الأموال ولا سيما العملة الأجنبية من البلاد

وكان لهذه الاجراءات صداها في بقية انحاء العالم. فنشطت دول شرق اوربا خاصة الى مجاراة الاقتصادين الألماني والايطالي فأضاف كل منها اجراءات جديدة جعلت التجارة الدولية ترسف في الأغلال مما حملها احياناً ناءت بها وضاقت بها ذرعاً. وقام العالم على قدم وساق يكثر من انتاج السلاح ويوجه اهتمامه نحو هذه الغاية، تاركاً خلف ظهرانيه الانتاج الحقيقي الخير باهتمامه والخلق بجهده الذي يوفر للناس اطمئنانة والهناءة الاقتصادية وهي الغاية الأخيرة لكل حكومة عاقلة رشيدة

وهكذا تحول مجرى الأمور الاقتصادية فبعد ان كان القصد التخلص من مخلفات الأزمة الاقتصادية، غدا الحرب طابع الاقتصاد الغالب عليه. وظهر جلياً — بفعل اقتصاديات الحرب — ان فكرة المزايا النسبية كأساس تقوم عليه التجارة الدولية قد أصبحت أمراً لا يتلاءم مع الحالة التي تسيطر على مصائر الأمم والشعوب في الوقت الحاضر. وبذلك غدا قطر ما مثلاً لا يزرع أكثر الاشياء صلاحية لأرضه ولكنه يزرع ما يمكنه من استيراد أقل قدر مستطاع. وآخر مثلاً لا يصنع ما هو كفء لصنعه ولكن ما يمكن صنعه من مواده المحلية كائناً ما كانت صلاحيتها لذلك

٦ — النتائج الاقتصادية المحتملة للحرب الحاضرة

على هدى الحوادث الاقتصادية التي أتت بالعالم بعيد الحرب الماضية ١٩١٤ — ١٩١٨ وعلى ضوء التفسير الذي أوردناه لتطور العالم الاقتصادي، يمكن استخلاص النتائج التي ستسفر عنها الحوادث الحاضرة

وأول النتائج التي ستستخلص منها هذه الحرب هو كبر الوحدة السياسية . اذ ستميل الدول الصغيرة على الانضمام بعضها الى بعض أو الى الدول الكبيرة بأي شكل من الاشكال السياسية المعروفة حماية لنفسها من عاديات المستقبل . وسيتبع هذا بالتالي ازالة كثير من الحواجز الجمركية التي كانت كل دولة تقيمها على حدودها والتي كانت عاملاً ذا شأن في زيادة حدة الأزمات الاقتصادية والمالية منذ الحرب الماضية . فكثرة الدول الصغيرة أقامت حواجز متعددة أمام التبادل وكان كل منها يتفنن في ابتكار شتى العقبات والموانع التي لم يكن لها من أثر سوى اضافة القيود والاغلال الى الاستبداد الدولي . وقد تعود فكرة الولايات المتحدة الأوربية الى الظهور أو على الأقل ينشأ في أوربا نوع من الاتحاد الجمركي تراعى فيه مصالح الوحدات السياسية مع عدم الاخلال بمصلحة المجموعة ومع مراعاة التخصص الحتمي لكل وحدة . وقد ينشأ مثل هذا الاتحاد بين القارتين الأميركيتين الشمالية والجنوبية وهي صناعية في الغالب ، والجنوبية وهي زراعية في الغالب . هذا وسيكون من نتيجة هذه الحرب زيادة توثيق العلاقات الاقتصادية بين أجزاء مجموعة الامبراطورية البريطانية ، وقد كانت اتفاقات اوتاوى خطوة موفقة نحو ذلك . وإذا كانت الحرب الماضية قد أوجدت أقطاراً عربية مستقلة فلا ريب في أن هذه الحرب ستعزز استقلال الاقطار فضلاً عن استقلال بلاد عربية أخرى وستنتهي الحرب شعوراً بالحاجة الى التكاتف والتعاون بينها ولا يستغرب ان ينشأ فيما بينها اتحاد اقتصادي تجني من ورائه أشهى الثمرات وتعزز تقدمها ونهوضها

ولما كانت الحرب الماضية قد خلقت صناعات في كثير من الامم التي كانت الزراعة الصفة الغالبة على اقتصادها ، فان هذه الحرب أيضاً ستكون عاملاً حاسماً في تعزيز الصناعة في هذه البلاد وأخصها بالذكر مصر والهند واستراليا والصين . فان توقف المنافسة الاميركية والاوربية سيتيح لها التقدم حتى تستكمل أسباب نهوضها الصناعي

ولقد أصبحت استراليا اليوم مركزاً صناعياً ممتازاً للامبراطورية البريطانية لانتاج معدات الحرب وغيرها . ومصر الآن تخطو خطوات موفقة للغاية نحو استكمال نهوضها الصناعي ولن يمضي وقت قليل حتى تكفي صناعة الغزل والنسج ، وهي أهم صناعات البلاد اليوم ، حاجات القطر الى المنسوجات وتصبح على استعداد للتصدير الى الاقطار العربية المجاورة ، والمثل يقال عن الصناعات الاخرى التي تستمد الجزء الاكبر من خاماتها من القطن نفسه وتشمل الجانب الاعظم من الصناعة المصرية . أما الهند فان مواردها العظيمة من المواد الأولية وتوفر الأيدي العاملة فيها مع رخصها يتيح لها أن تكون دولة صناعية من أعظم دول الارض وهي الآن أيضاً من المراكز الصناعية العظيمة في الامبراطورية البريطانية . والمثل يقال في الصين

من مذكرات دزرائيلي

عن

محمد علي الكبير

[أشرنا في مقتطف فبراير الماضي الى الكتاب النفيس الذي وضعه الاستاذ الكسندر الخاص في الدستور البريطاني ونظام الحكم في مجموعة الامم البريطانية ونقله الى العربية المرحوم الاستاذ العشري والدكتور ابو طائفة والاستاذ محمد بدران والاستاذ يوسف الريدي وقد استوفى نظرنا في الصفحتين ٥ — ٦ الفقرة التالية لتقدمه محرر]

إني أذكر ما كتبهُ دزرائيلي في مذكراته عن حديث له بالقاهرة مع محمد علي الكبير سنة ١٨٣٤ . وسأتلو عليكم مقتطفات من تلك المذكرات عن محمد علي واليكم أولها :

« بينما كنت أجول في حدائق قصره بشبرا صادفته فجأة بعد ظهر أحد الايام ، وكان يحيط به طائفة من رجال بلاطه في أزهى ملابسهم ، وأخص بالذكر منهم الخصيان السود في ثيابهم الذهبية والقرمزية راكبين جياداً بيضاً . وهممت أن انسحب ولكن أحد كبار اتباعه تناول ذراعي وقادني الى تلك الدائرة وقال لي : ان الباشا شديد الحب للانكليز وكان ينوه بلعب الشطرنج مع سميره فرأيت منظراً عجيباً جداً . ومكثت نحو ربع ساعة ، وقيل لي إني لو بقيت الى نهاية اللعبة لتحدث معي ، ولكني لم يكن معي مترجم ، وأنا واثق أيضاً أنهُ كان في مثل موقفي ، ولما آثرت أن أنحني منصرفاً

وجرت بعد ذلك مقابلة ثانية ونال دزرائيلي شرف استشارته في مشروع كان ينوه بدرسه لادخال الأنظمة الدستورية في بلاده . وقد بين دزرائيلي الصعاب المباشرة التي خطرت لهُ ، وكان الباشا يصغي اليهِ صامتاً وفي الاستقبال التالي حيى دزرائيلي بابتسامة رضا وأومأ اليهِ كي يتقدم . واليكم الكلمات التي قالها محمد علي كما أوردها دزرائيلي في مذكراته : قال له محمد علي « الله أكبر . إنك رجل حكيم . الله كريم . وإن اللآلىء لتخرج من فيك . ومع هذا سيكون لي برلمان وسيكون عندي من مجالس النواب مثل ما عند ملك انكلترا نفسهِ . أنظر هاهنا . وأخرج منوه كشفين بهما اسماء ثم قال . « هؤلاء هم نوابي . ولكني عزمت أن انتخبهم بنفسي لأتفادى المتاعب »

قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف طاغور

— ٦١ —

إنها مازالت طفلة ، ياسيدي ،

فهي تطوّف بجنبات قصرك بغية اللعب ، وهي تطمع في أن تجعلك أنت بعض لعبها

وليس يضيرها أن ينشعث شعرها أو أن يتترب ثوبها

إن النوم يسيطر عليها وأنت تحدثها فلا ترد جواباً . . . ثم تسقط من يدها الزهرة التي جنتها بها أول النهار . . . تسقط تتنفر

وحين تتفجر العاصفة من ضيق الضيق ، تهب هي من مرقدها لتفزع البث في خوف تاركة لعبها متناثرة على الأرض

وهي تخشى أن تخفق في أداء خدماتك

ولكنك ترقبها وهي بين ألاعيبها وعلى شفتيك ابتسامة

فأنت تعرفها

لأن الطفلة التي تجلس الآن على الثرى هي عرسك المنتظرة ، وإن عبثها سيستقر ثم يدلف في عمق الى الحب

— ٦٢ —

أفليس هناك مايمسكك ، أيتها الشمس ، غير السماء ؟

إن قطرة الندى تبكي وهي تناجيك « إني أحلم بك ، غير أن لاسبيل الى أن أصبح خادمك ، فأنا صغيرة لا أستطيع أن أضمك اليّ ، أيتها الشمس العظيمة ، لهذا فحياتي كلها عبرات »

فأجابتها الشمس « إني أملأ الفضاء اللانهائي نوراً ، ولكني أستطيع أن أضع نفسي في قطرة الندى الضئيلة ، اذ ذاك أستحيل الى شعاع من نور يملؤك فتصبح حياتك الصغيرة كالفلك الضاحك »

— ٦٣ —

لست أبتغي الحب الذي لايخضع لقيد ، فيكون كصورة الحمر تحتاج إنماءها في لحظة لتنطلق هي الى الفناء بل أحبني حبًّا باردًا نقيًّا كأنهُ الثلج ينهمل ليشفي صدى الأرض ويفعم الجرار الارضية

أحبني حبًّا يتغلغل في ضمير الخلق ثم ينتشر من هناك كأنهُ العصارة الخفية التي تسري خلال فروع الاشجار فتنبت حياة تلد الزهرة والفاكهة

أحبني الحب الذي ينفث في القلب القرار والسلام

— ٦٤ —

لقد غربت الشمس عند شاطىء النهر الغربي ، بين أشجار الغابة المتعانقة

فعاد الاطفال الساكون الى الدور يسوقون قطعانهم ، ثم جلسوا حول الموقد يستمعون الى الأب جايوتاما . . . حينذاك أقبل صبي غريب الحياء بالفاكهة والزهور وانحنى حتى كاد وجهه يمس قدمي الأب ، ثم راح يحدثه في صوت كتغريد الطير

« لقد أتيتك أريد أن أسير على نهج الحقيقة السامية

وإن اسمي هو سانيا كاما »

* * *

فقال الأب « لتهطل البركات عليك

ومن أي القبائل أنت يابنيَّ ؟ إن البراهمين وحدهم هم الذين يتداولون في إثر الحكمة البالغة »

فأجاب الصبي « لست أدري من أي القبائل أنا ، ياسيدي . غير إني سأرجع لأسأل أمي »

ثم انطلق سانيا كاما عبر القناة الضحلة ، وارتدَّ الى كوخ أمه ، على حافة القرية النائمة ، بين الرمال الجرداء

لقد كان المصباح يرسل شعاعاً ضئيلاً في جنبات الحجرة ، والأم جالسة لدى الباب . في ظلام الليل تنتظر عودة ابنها

* * *

لقد ضمتهُ اليها ، وقبلت شعره ، وسألتهُ عن رسالته الى سيده

فقال الصبي « من أبي ، يا أمي العزيزة ؟ »

« لقد قال الأب جابو تاما : إن البراهمين وحدهم هم الذين يتدارسون في إثر الحكمة البالغة »

فأطرقت الأم وقالت في همس

« في سني شبابي كنت فقيرة وكان لي أسياد كثيرون ، ثم أتيت أنت يا عزيزي الى ذراعي أمك جابيلا التي لم تتزوج قط »

* * *

ثم . . . ثم أرسلت الشمس الباكرة أول شعاع من أشعتها يلمع لدى رءوس أشجار الغابة

والتلاميذ جلوس تحت الشجرة العتيقة أمام سيدهم ، وشعورهم ماتزال ندية من أثر حمام الصباح

حينذاك أقبل سانيا كاما

فانحنى حتى كاد وجهه يمس قدمي الأب وجلس في صمت

فسأله الأستاذ الأعظم « خبّرني ، من أي القبائل أنت ؟ »

فأجابه « لست أدري ، يا سيدي . لقد سألت أمي فقالت : في سني شبابي خدمتُ ناساً كثيرين ، فأتيت أنت إلى ذراعي أمك جابيلا التي لم تتزوج قط »

فسلت زجرة كما طنّ نحل تريد أن تسأل عن نصبها الآن شيئاً يزعجها في خليتها وأرجف التلاميذ يتحدثون عن قحة هذا الخليع الذي لا يخجل

غير أن الأب جابوتاما هبّ من مجلسه وفتح ذراعيه يضم الصبي إلى صدره وهو يقول « أنت خير مَنْ في البراهمين ، يا بنيّ . لأنك جُزْتَ أشرف ميراث من الحقيقة »

— ٦٥ —

لكلّ داراً واحدة في هذه المدينة هي التي افتتح بابها — هذا الصباح — إلى الأبد ، عند أول لمسة من لمسات الشروق ، حيث تمت رسالات النور

لقد تفتحت الأزهار على الأسوار وفي الساتين ، ولعلّ قلباً واحداً هو الذي لمس فيها — هذا الصباح — معنى الهدية المتألقة في رحلتها آتية من ضمير الزمان اللانهائي

— ٦٦ —

« تسمَّع — يا قلبي — فإن في نايه موسيقا كأنها تنبعث من عطر الزهور البرية، ومن لمعات أوراق الشجر، ومن تألقات الماء، ومن أجنحة النحل الطنانة

إن الناي يختلس بسمائه من كل شفتي صاحبي ليلقيها في نواحي حياتي

— ٦٧ —

إنك تقف — دائماً — وحدك، في منأى عن سرى أغاني

وإن أمواج أنغامي تغسل قدميك، غير أني أعجز عن أن أبلغها

وهذه القصة، قصتي معك، هي قصة الأزل

إنها آلام العاد التي تذوب في ناي فتحور لحناً

على حين انتظر الساعة التي يسير فيها زورقك الى شاطئي فتأخذ نايي بين يديك

— ٦٨ —

على حين بغتة انفتحت ثغرة في قلبي ... الثغرة التي تطل صوب قلبك

وعجبتُ أن رأيتُ الاسم الذي تعرفني به قد خُطَّ على أوراق أشجار ابريل وأزهاره، فجلستُ في صمت

وفي لحظة من زمان أزهرت الأسرار التي بين أغانيَّ وبينك

فألفيت نور صباحك يزدحم بألحان أغنيات صامتة لم توقَّع بعد، وتراءى لي أني سأتعلمها لدى قدميك ... فجلست في صمت

— ٦٩ —

إنك كنت بين ثنايا قلبي، لهذا عجز قلبي عن أن يجدك حين انطلق يفتش عنك. لقد واريت نفسك — أبداً — عن حبي وأملي لأنك كنت دائماً فيهما

وكنت اللذة العظمى في قصة شبابي، وحين جذبتني القصة اليها كاد عقد اللذات ينتثر

ولقد غنيت لي في خلسات من حياتي، ونسيت أنا ان أغني لك

— ٧٠ —

حين تمسك بصباحك في السماء يسقط شعاعه على وجهي فينكس اليك

وحين أمسك أنا بمصباح حبي الثاوي في قرارة قلبي ، يسقط شعاعه عليك ، وأظل أنا ـ من وراء ـ واقفاً في الظلماء

— ٧١ —

أيتها الأمواج ، يا من تبتلعين السماء ، وتلعبين بالنور ، وتتراقصين بالحياة ، يا موجات الطرب الفوّار اللاتي تتدافعن الى اللانهاية

إن الكواكب تضطرب على صفحاتك ، وان فنوناً من الخواطر تنبعث من قاعك لتنتشر على شاطىء الحياة

وإن الميلاد والفناء يسبحان ويهبطان على لفائك ، وان طير قلبي البحري ينشر جناحيه ويصبح في فرحة

— ٧٢ —

لقد أقبل المرح من كل فج ليساهم في بناء روحي

وهفت أنوار السماء تقبلها مرة ومرة حتى هبت من سباتها

وراحت زهرات الصيف الباكرة تئن لدى أنفاسها ، وترنمت هبات النسيم وخرير الماء على خطواتها

وفاض هوى ألوان السحب والغابة . . . فاض على حياتها ، وأقبلت موسيقا الأشياء تعانق أطرافها

لأنها هي عرسي ... عرسي التي أنارت داري بمصباحها

— ٧٣ —

إن روح الربيع وأوراقه وأزهاره تتغلغل جميعاً في جسمي

وان النحل لتطنّ هناك طوال أيام الصباح، وان الرياح لتداعب الظلال

* * *

إن نبعاً جميلاً يتدفق من ضمير قلبي

وإن عيني يغسلها المرح وكأنه أنداء الصباح، وان الحياة لتضطرب في أطرافي كما اضطرب وتر القيثار المتوتر

* * *

أقمت تجوب — وحدك — على شاطىء حياتي ، حيث المد في فيضانه ... أنت يا حبيب أيامي الأبدية ؟

أفترف أحلامي حوالبك كأنها الفراشات ذوات الأجنحة الملونة ؟
ثم أتتجاوب أغانيك في مجاهل خيالي المظلم ؟

* * *

من سواك يستطيع اليوم ان يسمع دوي الساعات المتدافعة في عروقي ، أو ان يسمع خطوات الغارب وهي تتراقص في صدري ، أو ان يسمع صرخات الحياة وهي تضرب بأجنحتها في جسمي ؟

— ٧٤ —

لقد ابتعت وشائجي ، ووفى ديني ، وانطلق بابي ، لأنطلق الى حيث أشاء.

انهم يلصقون بحجورهم بحكون خيوط الساعات الذاوية ، يحصون تراهم وهم جلوس على الثرى ، وينادونني

غير أن سبيي كان سلولاً ، ولا ، متى كانت كاملة ، وحسبي كان في شغف لأن ينطلق

وأنا ... سأفوز بملكي

— ٧٥ —

انه كان يوم ان هبطتُ الى أرضك عارياً في غير اسم ، أصبح صيحة المكروب والآن ها هو صوتي يتجلجل في فرح ، في حين انتحبت أنت — ياسيدي — ناحية لتذرني أقسم حياتي

* * *

وأنا أجد في نفسي أملاً خفيًّا يحدثني بأن الناس سينا كفوني لأني أقدم لك أغاني قرباناً

وأنت تريد أن تكشف عمَّا أحمل لهذه الدنيا في قلبي من هوى ... هذه الدنيا التي دفنتني أنت اليها

— ٧٦ —

لقد كنت أقبع — فرقاً — تحت ظلال الأمان ، والآن ، حين حمل فيض سرور قلبي على آذيه ، اندفع قلبي الى صخرة الصاعب الجامية

وكنت أجلس في ركن داري وفي رأيي انها لا تسع الضيف ، والآن ، حين

افتح بابها على مصراعيه في مرح لانهائي ، الفيت أنها تملك وتسع كل هذا العالم
وكنت أمشي الهوينى ، متوقفاً بتفهي وهي تمأنق في عطرها وزينتها ، والآن ، حين اقتلعتني عاصفة الطرب لألقي بي على الثرى ، ضحكت وأنا اتدحرج على الأرض — كالطفل — عند قدميك

— ٧٧ —

إن العالم ملكك الآن وإلى الأبد
غير أنك لا تستشعر اللذة في ملكك ، يا مايكي ، لأنك في غير حاجة إليهِ أمامك كأنهُ لا شيء
وخلال دبيب الزمان نزلت لي عن بعض ملكك لتجد ريحهُ فيّ
وعلى مرّ الأيام رحت تشتري شروق الشمس من قلبي ، ثم وجدت حبك ينغرس في نواة حياتي

— ٧٨ —

أنت حبوت الطير الغناء فتنني لك
وحبوتني الصوت ثم طلبت إليّ المزيد فغنيتُ
وخلقت رياحك هينة فانطلقت على مهل ، ولكنك حمّلت يديّ ثقلاً على أن أخفف أنا عنهما ، وأن أظفر — أخيراً — بالحرية الطليقة التي تستحق أن تقوم بخدماتك
ثم خلقت أرضك ونثرت بين ظلالها نقاط من نور
ثم خصصتها بنظرات منك ، وتركتني على الثرى حاوي الوفاض لا شيء أنا سماءك وأعطيت خلقك ثم طلبت مني
لقد نضج غرس حياتي تحت الشمس والفيت لأحصد أكثر مما زرعت أنت لطرب قلبك ، يا إله الأمراء الذهبية

— ٧٩ —

لا تدعني أدعوك لأجد الأمان من الخطر ، بل لأجد القوة على مجالدته
لا تدعني أسأل البرء من آلامي ، بل العزم على مصارعتها
لا تدعني أركن الى العون في معركة الحياة ، بل دعني أعتمد على قوتي أنا

لا تدعني أتوسل في نزع غلّتي أبلغ النجاة، بل صبّ عليّ الأمل فأظفر بالحرية واسبغ عليّ فضلاً بسئلُ مني الجبين ... الجبين الذي يشعرني رحمتك في فوزي فقط . فضلاً يدعني أحس لمساتك في إخفاقي أيضاً

—٨٠—

إنك لا تستطيع ان تعرف نفسك وأنت في عزلة لا تسمع من خلالها صيحات الرسالة التي تنطلق على جناحي الريح مندفعة من شاطىء الى شاطىء

حين أقبلتُ والسماء تشرق بالنور ، استيقظت أنت

وجعلتني أفتح عن أزهار كثيرة ، ثم حدقتني في سهود مختلفات ، وواريتني بين طيات الفناء ثم بعثتني حيًّا

***

لقد أقبلتُ وقلبك يضطرب ، والألم والسرور يتنازعانه

فلمستني لأجد مَسَّ الحب

غير أن غشاوة من خجل كانت قد حجبت بصري ، ورعدة من نزع كانت قد رانت على قلبي ، فانثنيتُ ثم بكيتُ لأني لم أرك

والآن عرفت في قلبك الظمأ اللانهائي لرؤيتي ... الظمأ الذي يصيح لدى باب كل فرعه أشعة الشمس المشرقة .

—٨١—

أنت ، في ساعتك اللازمنية ، تنسج خطواتي الدائبة ، على حين أن فرحتك تجمع عند أول لمعة من لمعات الصباح ثم تتحطم عند شروق النور

وكلما دنوتُ منك كلما بدت الحماسة في رقصة البحر

إن عالمك شُعب من ضوء تضم يديك ، ولكن سماءك في أضلاع قلبي ، وإن أكمامه لتتفتح — في بطء — عن هوى دفين

—٨٢—

سأسبح بحمدك وأنا جالس وحدي بين أشباح خواطري الصامتة

سأسبح بحمدك في غير كلام وفي غير حاجة

لأني كالطفل ينادي أمه مرات ومرات ، لأنهُ يطرب حين يقول « يا أماه »

— ٨٣ —

١

إني أشعر كأن كل النجوم تشرق في نفسي
وكأن الدنيا تنسرب في حياتي كالفيضان
وكأن الزهور تتفتح في جسمي
وكأن شباب الأرض والبحر يلفح خطره في قلبي ، وأنفاس كل شيء أعرف أنغامها تمل خواطري كأنها الفيثار

٢

حين تغفو الأرض أهفو أنا نحو بابك
وخشيت أن أغني لأن النجوم كانت صامتة
فلبثتُ أرقب حتى مرَّ طيفك عبْر الليل فرجعت وقد امتلأ قلبي
وعند الصباح وقفتُ على جيد الطريق أشدو
فردَّدت الأزهار نغمات أغاني ، وأصاخت نسمات الصباح تسمع
وعلى حين فجأة ، وقف الركب يحدقون فيَّ ، وفي ظنهم أني أناديهم

٣

اجعلني ألزم بابك لأهيء لك رغباتك ، ثم ذرني أجلس خلال ملكك لأبي بدادك
ولا تذرني أختمر في أعماق الحزن فأتوارى
ولا تذر حياتي تتناثر بدداً في مجاهل الفراغ
ولا تذر هذه الشكوك تتناهبني .. فهي أم اللوثة
ولا ترسلني أضرب في شعاب الأرض لأقتني أشياء
ولا تدعني أضاعف قلبي تحت كل نير
بل دعني أرفع رأسي في كبرياء من هو خادمك وفي شجاعته

— ٨٤ —

المزمور

أفتسمع ضجة الموت تصاعد من بعيد
إن الصيحة ترتفع من خلال ألسنة النار ومن سحب الدخان الخانق
... لقد أمر القائد صاحب السكان أن يسم شطر الشاطىء المجهول
لأن الزمان قد انطوى — الزمان الساجي في الميناء —
حيث السلع القديمة تباع وتشرى على نمط لا ينتهي
حيث الاشياء الخارجية تنجرف بين فتور الحقيقة وخوفها

* * *

وعلى حين بغتة هبوا في فزع يتساءلون :
كم الساعة الآن ، يا رفاق ؟
متى يبزغ الفجر ؟
لقد طمست السحب على النجوم ...
فمن ذا عساه يتوضح لمعات النهار ؟
لقد تدافعوا يحملون مجاذيفهم ، وخوى الفراش ، ورحت الأم تصلي ، وجلست الزوجة لدى الباب تنتظر
وأخذ عويل الفراق يسمو الى السماء
واخترق صوت القائد الظلماء يقول :
« تعالوا ، أيها الملاحون ، فالزمن في الميناء قد انطوى »

* * *

لقد قضت الشرور السود — في هذا العالم — على شطآنها
والآن ، خذوا أماكنكم ، أيها الملاحون ، وبركات الأسى تتدفق في أرواحكم
على من تساكم تتبعون ، أيها الاخوان ؟ أخفوا رؤوسكم !
لأنها هي خطيئتكم وخطيئتنا
وان الغضب ليتسعر في قلب الله خلال الأجيال ...
إن حين الضعيف ، وغطرسة القوي ، وجشع الثمة الوقحة ، واضطغان المعيب

وعن العشيرة ، والتعالي على الناس ...
كل أولئك قد تجشّم من عفو الله عاصفة جياشة

* * *

دع العاصفة تحطم قلبها — كأنها عمد نبات تضج — ثم تثأر الى وعد
وامنع هذا الفيض من الهجاء ومن مديح النفس
ثم انطلق الى الشاطىء المجهول وعلى جبينك أثر هدوء الصلاة الصامتة

* * *

لقد لمسنا الخطايا والشرور ، وعرفنا الموت
أنها جميعاً تطوف بأرضنا — كأنها النجوم — تسخر منا ، وإن الابتسامات
الصابرة لتلمع على شفاهها
وعلى حين غرة وقفت ثم استحالت مسخاً
لحقّ للناس ان يقفوا بازائها ويقولوا :
« اننا لا نخشاك ، أيها المسخ ! لأننا نحيا لنعزوك
ونحن نموت على دين ان السلام حق ، وان الخير حق ، وان الواحد
الأبدي حق ! »

* * *

اذا لم يكن البقاء بين ثنايا الفناء
وإذا لم تشرق لمعات الحكمة الطروب من عمد الأحزان
وإذ لم تقس الحقيقة عند انتشار خبرها
واذا لم تتحطم الكبرياء تحت أعباء زخرفها
فمن أين يبزغ الأمل .. الأمل الذي يجذب الناس من ديارهم كأنهم الشهب
ليتدافعوا الى نهايتهم تحت أنوار الصباح ؟
أتضيع دماء الشهداء وعبرات الأمهات . . . أتضيع كلها بين طباق الثرى ثم
لا تباع اجنة ؟
وحين يحطم الانسان قيوده الأرضية ، أفلا ينطلق اذ ذاك الى اللانهاية ؟

— ٨٥ —

نشيد الخيبة

لقد أمرني سيدي — وأنا في ناحية من الطريق — أن أغني نشيد الخيبة ، لأن عرسه التي تزوج منها خفية عن الطريق

انها تسدل خماراً أسود يواري قسمات وجهها عن الأعين ، غير ان خلالها كانت تسطع من على صدرها خلال الظلماء

لقد كانت نهارها مهجورة ، ولكن ليالي الله تنتظرها بالمصابيح المنيرة والأزاهير الندية

وهي معانقة في صمت لأنها خلفت دارها من ورائها ، وان صوت نواح يصاعد منها ليبلغها على بساط الريح

ولكن النجوم تترنم بأغاني الأبدية الحلوة لتبعث بها الى وجه جثة الحجل والفنا

والآن ، انفتح باب الحجرة الخالية ، وتعالى صوت ينادي ، واضطرب قلب الظلماء من خوف ، لأن ميعاد اللقيا قد حان

— ٨٦ —

الخمر

هؤلاء الذين تحرقهم الكبرياء في نارها ، يسحقون بسطاء الناس تحت أرجلهم ويصبغون خضرة الأرض الجميلة بلون الدم الذي يلوث أقدامهم

فدعهم في لهوهم يحمدوك ، يا الهي ، لأن الآن دولتهم

غير اني أحمدك كثيراً على أن جعلت حظي بين الطبقة السفلى ... بين الذين يقاسون شدة الحياة ويحملون عبء القوة ، ثم يوارون وجوههم ويخفون زفراتهم بين طيات الغسق

فغداً تكون دولتهم

وأيتها الشمس ، أشرقي على القلوب الدامية لتتفتح عن زهرات الصباح ، ولتحور شملة الكبرياء الى رماد

(انتهى بحمد الله) كامل محمود حبيب

قد أكمل

لنجيب شاهين

كفنوا جسمي او لا تفعلوا ان حولي من رجائي كفنا
وادفنوا قلبي أو لا تدفنوا كبُرَ الروحُ به أن يدفنا

***

أخذت جدُّ البرايا آدماً سنةً أولها من قبل عاد
وترى رسميس في تابوته سادراً يبقى الى يوم المعاد
ضجعة لا يشتكي صاحبها قصر النوم ولا طول السهاد

***

ليتما يرجع من وادي الردى مخبرٌ يخبر عما شاهدا
ينصر الله على اعدائه ويروح الحق بأني شاهدا
ان في الكون عدا ما ينثلي وترى بالعين ، كوناً خالدا

***

مرَّ هذا الموت قد حيرني أنا منهُ بين شك ويقين
كلما فكرت أوهت ربي صخرَ ايماني والركن المتين
واذا نمت جفاني مضجعي ورقادي وأبى عقلي الكون

***

قال تنيسون (١) قولاً صادقاً بصف الايمان في مرثاته(٢)
انا نؤمن ما عشنا بمن خلقنا البرهان في آياته
انما آياتهُ ماثلة بورك المولى على آياته

***

أفذا آخر عهدي بالذي ليت شعري ومعانيها الغوالي
من بنين ازدانت الدور بهم وبنات ثم أزواج ومال

---

(١) الشاعر تنيسون شاعر العرش الانجليزي (٢) مرثاته المسماة In Memoriam

ورعايب كما شاء الهوى وكؤوس أترعت بنت الدوالي

***

وعذار ضدت زوجين في كل غصن أنقلته الثمرات
نشكا من ظمها حتى انحنى فمثنا بالقطوف الدانيات
او لقطنا بعض ما أسقطه ولكل منهُ أيدٍ لاقطات

***

أيها الناعي لنفس سفهاً كذب الناعي وإن صح الخبر
لم يمت من عاش في الله ولا عاش من أنكر آيات القدر
قد « قسمنا خطتينا بيننا » واحد آمن والثاني كفر

***

مالقلبي خافقاً ناقوسهُ وله دقٌّ كناقوس البيع
قد شكا طول المدى « لبانهُ » فلكم أنَّ ونادى وترع
ثم أخيراً يا فؤادي واسترح أنت بالراحة أولى من جميع

***

عظَّم الله اذاً أجرك بي يا فؤادي وكذا أجري بكا
فلقد كنا رفيقي صبوتي في غرام ليَ منهُ مالكا
ذهب العشق وولى أهله كل من قد سرَّهُ او من بكى

***

كل حمل في الهوى خفَّتهُ أنا او أنت حملناهُ معا
كشريكين وفين على السذل والايثار حفا طبعا
فلو أن الناس عاشوا مثلنا لرأيت الأرض روضاً ممرعا

***

فمتى يهتف بي داعي الردى لسرى يدعو اليه مسجلا
ويناجيني مناجٍ قائلٌ يا أخا الدنيا ألا حيَّ هلا
أجب الداعيَ لي مستبشراً قائلاً في طرب قد أكملا(٣)

(٣) كتبت كلمة آخر ما نظمه السيد المسيح قبلما لفظ روحه